

مركزية الإله المتأنس والإنسانية الأرثوذكسية

الفاسيليادا كمثل للإنسانية

بانايوتا مكروبانذريمينو وإياد لدعة*

مصطلحات ضروري تحديدها لقراءة المقال:

- الإنسانية أو العمل الإنساني: هو نظام أو طريقة تفكير وعمل، تعطي جلَّ اهتمامها لقيمة الإنسان، لمصالحه، لقيمه وكرامته.
- مركزية الإله المتأنس: أن يكون الإله المتجسد، أي السيد المسيح، مركز تعليم وحياة المسيحي.
- الفاسيليادا: تَجْمَعُ عُفْرَانِيَّ داخل مدينة قيصرية في كبادوكية، حيث احتوت على عدة جمعيات لتسد احتياجات إنسان القرن الرابع ميلادي. سميت فاسيليادا نسبة لمؤسسها القديس باسيليوس الكبير.

١ مقدمة

من الأسس اللاهوتية الأرثوذكسية أن الإنسانية ليست تأليه الإنسان، وإنما هي المعرفة التامة بأن مركز حياة الإنسان هو الإله المتجسد، وأن نتائج التجسد، الذي مركزه المسيح، هي خبرة حياتية وليست نظرية، وهي ما يضبط حياة الإنسان الأرثوذكسي. آباء الكنيسة الذين اختبروا السعي للفضائل، وفضلوا كلمة الحق باستقامة في حياتهم، شدّدوا على ذلك [١]. الفاسيليادا، وهي المؤسسة التي غطت كل الاحتياجات البشرية في القرن الرابع، هي مثال يظهر البنية "الإلهية المتأنسة" للعمل الإنساني المسيحي.

يهدف هذا المقال إلى البحث في كيف يتم تطبيق العمل الإنساني الأرثوذكسي، في العصر الحاضر، مقارنةً مع تطبيقه في الفاسيليادا. ومن ثمّ إلى تقديم اقتراحات ببناءة تشكل أساساً لسد الحاجات المعاصرة وإشباع البحث اللاهوتي المسيحي.

يبدأ المقال بالسؤال عن الإطار النظري للعمل الإنساني الأرثوذكسي، وكيف عملت الفاسيليادا وما كانت حاجات القرن الرابع الميلادي التي غطتها، كما يعرض احتياجات العصر الحالي؟

للإجابة على هذه الأسئلة تمّت العودة إلى كتابات آباء الكنيسة المتعلقة بموضوع العمل الإنساني، وخاصةً تلك التي تنطرق إلى حياة ونشاط القديس باسيليوس الكبير الكنسي. كما تم الاستناد إلى الأبحاث والدراسات اللاهوتية المعاصرة التي تتعلق بالعمل الإنساني الأرثوذكسي وباحتياجات المسيحي المعاصر وأسئلته.

٢ الإطار النظري والإطار اللاهوتي للإنسانية الأرثوذكسية

مصطلح الإنسانية مُتَّصِل ومُرتَبَط بشكل مباشر بمصطلح أعمال الرحمة [٢]. القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩) عرّف المحبة بأنها الرحمة [٣]. مركز علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، عند القديس باسيليوس الكبير هو الإله. تعتمد هذه الأنثروبولوجيا على حرية الشخص بتوجه إنساني. وكونها أنثروبولوجية لتجلي النعمة فهي تجلب عناصر الرجاء [٤]. الله أفرغ ذاته (Kenosis) ليقود الإنسان إلى التأله، وهذا الفعل هو فعل محبة ورأفة بالبشر [٥]. إحدى الصفات الخاصة، الثابتة والمستقرّة، للسيد المسيح، كما ترد في الكتابات الليتورجية وسير القديسين، وهي واحدة من صفات أخرى له، هي صفة محبة البشر. يؤمن المسيحيون الشرقيون بأن الله إله رحوم و محب للبشر وليس إله عقاب، وهذا يُستدل عليه من جميع مظاهر حياتهم [٦].

يستخدم القديس يوحنا الذهبي الفم نفس المصطلحات بشكل مستمر ليعبر عن محبة الله للإنسان وليعبر عن المحبة في علاقات الإنسان الشخصية [٧]. تشهد القوانين الكنسية على نشوء تقليد لأعمال الرحمة. في نفس الوقت، شرّعت الكنيسة تأسيس الجمعيات الإنسانية، المستشفيات، دور المسنين وغيرها.

القديس غريغوريوس اللاهوتي، في حياته اليومية وتعاليمه، ربط الحياة الروحية بأعمال المحبة. هذا ما فهمه من الكلمات الإلهية " ... وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهَذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكَوتِ السَّمَاوَاتِ" (متى ١٩:٥). ويكتب القديس في مقاله الرابع عشر: "لننقّ أنفسنا فاعلين أعمال رحمة ولنبيّض كلّ منا نفسه، بعض منا كالشعر، آخرون كالثلج، على حسب عطف كل واحد منا. الآن، بينما لدينا وقت، إي متواجدين في هذه الحياة، لنزّز المسيح، لنخدمه، لنعطه غذاءً، لنكشّهُ، لندعوه الى منزلنا، لنكرمه، ليس فقط على المائدة، كما يفعل البعض، وبدون العطور، كما فعلت مريم ... ولكن لأن سيد الكل يريد تعبيراً عملياً عن الرحمة وليس تضحية خارجية ولأن الرحمة أثنى من مجموعة لا تعد من الحملان المسمنين المقدمين للتضحية. لنقدمها (أي الرحمة) للسيد، مقدمينها لهؤلاء الذين يحتاجونها وقد أهملهم رفقاؤهم البشر، لكي نكون مقبولين في المساكن الدهرية، عند انتقالنا عن هذا العالم" [٨].

في مقاله عن توبة اهل نينوى، يصف القديس أفرام السرياني أحداث ذلك العصر كما عاشها هو وكما يريد أن يعيشها المسيحيون مستخدماً مقدار المحبة كالمقياس الروحي المثالي. يكتب القديس: "كلّ منهم يحثّ الآخر على الصلاة والتضرع وعلى تقديم نفسه، والمدينة أصبحت كجسد واحد. حيث كلّ ينتبه لئلا يخطئ أحد منهم. لم يصل أحد لخلص نفسه فقط، وإنما كانوا يصلون ليخلصوا كأعضاء في

جسد، لأن كل المدينة كمثّل إنسان واحد، تم استدعاؤه ليستسلم للدمار والضياع. الصديقون تضرعوا ليخلص الخطأة، ليخلص هؤلاء معهم، والخطأة صرخوا نحو الله ليسمع تضرع الصديقين [٩]."

٣ الاحتياجات التي غطتها الفاسيلياذا

أحبّ القديس باسيليوس الكبير الاهتمام بعمله الاجتماعي، عمل على تنسيقه بنفسه، مُعطيّاً دائماً التوجيهات اللازمة لعمله [١٠]. بعد أربع سنوات من الدراسة في أثينا حيث درس الفلسفة، الجدل والطب [١١]، عاد إلى قيصرية كبادوكية وبعد معموديته تأثر بعمق من الوصية الإنجيلية التي تحثّ على توزيع الممتلكات للفقراء وبادر في تطبيقها (مرقس ٢١:١٠) [١٢].

عاش القديس باسيليوس وعمل حسب تعاليم الكتاب المقدس. عاش المحبة التي أثمرت ثمار رائعة. فبسبب مهاراته العملية والإدارية، وكفمارس للاهوت المسيحي والفلسفة [١٣]؛ طبّق ولأول مرة في التاريخ الصّدقة الحقيقية المُجبة للبشر، والتي كان أساسها المحبة المسيحية بطريقة منظمة ومُنهجية، أي كجمعية إجتماعية منظمة. حتى أنه ولأول مرة دخلت كلمات بيت الفقراء، بيت العجزة وروضة الأطفال إلى اللغة اليونانية [١٤].

في عام ٣٦٨ حدث جفاف ومجاعة كبيرة فارتفعت أعداد الفقراء. عمل القديس باسيليوس على جمع كلّ ما استطاع وكل ما كان متوفراً من أنواع الطعام، وحتى استطاع توفير طعام مطهي إلى جميع الفقراء الذين كانوا في وضعٍ مزرٍ. كما عالج كل من كان يعاني من أمراض جسدية وعمل على الاهتمام برفع معنوياتهم النفسية عن طريق نقل كلمة الحق لهم، بهدف أن يفيدهم روحياً في نفس الوقت [١٥]. كل ما ذكر سابقاً نظمه القديس بطريقة ممتازة، حتى أدق التفاصيل، وعمل على تسخير كل ممتلكاته في سبيل عمل الخير. وفي سبيل تأمين موائد الطعام، حرص القديس على إطعام الجميع بدون تمييز بين ديانتهم أو عرقهم، حتى ولو كانوا وثنيين أو يهوداً [١٦].

كل ما سبق كان نقطة بداية لتطور كبير في أعمال القديس الخيرية، والتي كانت منظمة بشكل فريد نسبة لتلك الحقبة الزمنية. عام ٣٧٠ عندما سيم القديس باسيليوس الكبير اسقفاً لقيصرية كبادوكية، استخدم موهبته في الوعظ، فاستطاع إقناع أغنياء المنطقة، وحتى أنه أقنع فلافيوس يوليوس فاليس، والذي يعدّ من أعداء القديس السابقين، أن يساهموا في بناء مركز ليغظي معظم احتياجات المجتمع. بالأخص أنشأ مستشفى، وملجأ أيتام، ومستشفى لمرضى الأمراض المعدية، ونزلاً للمسافرين والزائرين. سُمّي هذا المجمع الفاسيلياذا نسبة للقديس. يشير سوزومينوس أنه بعد رقاد القديس لم يتوقف عمل هذا المجمع، وإنما استمر في تقديم المساعدة حتى منتصف القرن الخامس ميلادي [١٧].

اعتنى القديس باسيليوس الكبير بالمرضى كمرض بسيط، وخاصة بالمصابين بالبرص الذين كانت حالتهم سيئة للغاية، حيث كانوا يُعتبرون "أموات قبل الموت" [١٨]. وإيماناً منه أن الصحة الجسدية تقترب بصحة النفس، ركّز عنايته على الأشخاص الذين عزلهم المجتمع بسبب امراضهم المعدية. كان للقديس محبة كبيرة بحيث أنه كان يعانقهم بمحبة أخوية. بناءً على ما سبق، يمكننا القول أن القديس باسيليوس الكبير هو مؤسس نظام الرعاية الشمولية [١٩].

يشهد القديس غريغوريوس اللاهوتي في مقالته التي رثا فيها القديس باسيليوس الكبير للعمل هذا حيث يقول: "تقدم قليلاً خارج المدينة وستقابل مدينة جديدة، بناءً جيداً بالثناء تم بناؤه من هبات الأغنياء، هذه الأشياء التي تعتبر زائدة لهم هي مهمة للفقراء. بتشجيع منه، أعني باسيليوس، تم الاحتفاظ بها. في ذلك البيت يواجه المرض بالصبر، وتُعتبر تقدمات الناس مصدر فرح، ويُعامل الناس برأفة". القديس باسيليوس الكبير اتبع المثال الكتابي في متى ٦: ١٩ "لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون" [٢٠].

القديس غريغوريوس النيصي، أخو القديس باسيليوس الكبير الذي كان داعماً متحمساً لأعمال الرحمة، يقول أن أعمال الرحمة تعتبر "ميزة من ميزات الله" وهي إحدى مرادفات المحبة لأن المسيح، وبسبب محبته للبشر، تجسّد ليخلص البشر [٢١].

في نفس العصر، دعا القديس يوحنا الذهبي الفم رعيته الى أن يوفرُوا غرفة واحدة ليستضيفوا الفقراء والمشردين لأن هذا العمل يُعتبر تقدمةً للمسيح نفسه [٢٢]. الفكر اللاهوتي كما يتم التعبير عنه من خلال خبرة المجتمع الكنسي، أي أن رأس الكنيسة هو الإله المتجسد، أثار شكّ البعض في حقيقة تجسد الإله. ولكن حقيقة التجسد الإلهي، تشهد أن كلّ شخص منا يحمل رسالة الكنيسة التاريخية بمعرفة تامة أننا خلايا متساوية من جسد الله نفسه، وفي نفس الوقت جسد العالم، ولكننا لسنا الله [٢٣].

نستنتج مما سبق أن التعبير عن المحبة عن طريق عمل الخير يأتي بدافع طوعي وليس إجبارياً لرعاية الإنسان.

٤ الإحتياجات المعاصرة التي تخدمها الكنيسة

يتطلب تعداد إحتياجات الانسان المسيحي المعاصر الى العديد من التخصصات ويحتاج مقالات عديدة. نورد في هذا المقال البعض منها تم نشرها في ذبتيخا [٢٤] كنيسة اليونان، وشغلت الباحثين المهتمين بحقول مشابهة ومنها اللاهوت.

ذياكونيا "Διακονία" هي خدمة لا تبغى الربح تابعة لكنيسة اليونان، يتمركز عملها على محورين [٢٥]: الأول هو الخدمة الروحية، التي تشمل الحياة الليتورجية وعيش الأسرار التي تقدمها للمسيحيين وتعليم الشباب والاهتمام بالاشخاص ذوي الاحتياجات. هذه الخدمات يتم تقديمها عن طريق الكهنة والمؤمنين. كما تعمل ذياكونيا على تنظيم مدارس للأهل، ومدارس للقياديين في الكنيسة، وخدمات دعم للاجئين والمهاجرين، وخدمات لتخطي الصعوبات اليومية. أحد الأمثلة هو رعاية المسجونين. يتضمن المحور الثاني أعمال الرحمة والتي تُنفَّذ من خلال العديد من النشاطات عن طريق كنيسة اليونان أو بالتعاون مع الكنائس الأرثوذكسية الأخرى [٢٦]. هدف أعمال الرحمة هو تنشيط المستفيدين من هذه الأعمال وإشراكهم في تحسين ظروفهم المعيشية. لهذا يتم التركيز على جيل الشباب الذين يجب ان يتعلموا ان يكونوا مبادرين وأن يعملوا ويتحملوا مسؤولياتهم وواجباتهم. تُعتبر المخيمات الكنسية أحد الأمثلة على ذلك.

من الأمثلة على الخدمة والتقدمة الأرثوذكسية الإرساليات بهدف مقدس الى دول الخارج. من خلال هذه الإرساليات يقوم المسيحيون بالذهاب الى دول لم تعرف المسيح بعد. وبسبب تدني مستوى المعيشة في تلك الدول، فان مساعدات الإرساليات مستمرة، ويتم إرسال الكثير من الأغراض لتلبية الاحتياجات تطبيقاً لكلام الكتاب عن المحبة. هذا عمل صعب بسبب عدم وجود البنية التحتية في تلك البلدان.

٥ الخلاصة والاقتراحات

باختصار، إن الفاسيليانا عملت كمجّع لأعمال الرحمة بهدف شفاء نفوس وأجساد المستفيدين في ذلك العصر. ولأن احتياجات البشر لا تتوقف، يجب ألا تتوقف اعمال المحبة. الكنيسة التي تحمل على عاتقها شفاء الإنسان بشكل تام، تلتزم خدمتها اليوم، وتطبقها بما تمتلك من قدرات، عاملةً على تخفيف آلام الانسان.

وأخيراً، إذا اعتبرت الكنيسة، بكل أبرشياتها، في اليونان وخارجها كما الإرساليات، أن الخدمة التي تقوم بها هي حقيقة واقعية، فقد يكون ممكناً تلبية غالبية احتياجات الناس.

ما قام به القديس باسيليوس هو وضع الأساسيات لتطبيق عمل الرحمة المسيحي، وهذه الأساسيات أوجدت عملاً سابقاً لعصره وللعصر الحالي، حيث أنه وفّر المساعدة لجميع المحتاجين، بغض النظر عن دينهم أو عرقهم. الفاسيليانا هي المثل الذي لا يمكن تجاهله، بل يمكن أخذه كنموذج لبناء خدمات تساعد المحتاجين، حيث أن مشاكل الإنسان لا تتغير والمجتمعات تواجه صعوبات متشابهة.

* بانايوتا مكروباندريمينو هي طالبة دكتوراة في اللاهوت في قسم العقائد في جامعة أرسطو في تسالونيكي.
* إباد لدعة هو طالب دكتوراه في اللاهوت في قسم التاريخ الكنسي في جامعة أرسطو في تسالونيكي

- [1] Ευαγγελίας Τσαγκαρλή-Διαμάντη, *Η Πατερική διδασχλή στα κατηχητικά σχολεία της Εκκλησίας της Ελλάδος-Ιστορική αναδρομή και διδακτική αξιοποίηση*, Διδακτορική διατριβή, στο τμήμα Κοινωνικής Θεολογίας του Πανεπιστημίου Αθηνών, Αθήνα: Λύχνος, 2003, σελ. 126-134.
- [2] The Oxford Dictionary Of Synonyms And Antonyms, Third Edition, Oxford University Press 1999,2007,2014
- [3] Μεγάλου Βασιλείου, Ομιλία περί Αγίου Πνεύματος, PG 31, 1.429 – 1.437
- [4] Ολυμπία Παπαδοπούλου-Τσανανά, *Η Ανθρωπολογία του Μεγάλου Βασιλείου*, Πατριαρχικό Ίδρυμα πατερικών μελετών, Θεσσαλονίκη 1970
- [5] Διονυσίου Αεροπαγίτου, Περί Εκκλησιαστικής Ιεραρχίας, Κεφ. Β΄, PG 3, 393A
- [6] Demetrios Constantelos, *Byzantine Philanthropy and Social Welfare*, Rutgers university press, New Jersey,1968, σελ.29-41
- [7] Ιωάννου Χρυσσοστόμου, Υπόμνημα εις τον Απόστολο και Ευαγγελιστή Ιωάννην, ομιλία ΚΣΤ,3 PG59 στ.160-161
- [8] Γρηγορίου του Θεολόγου, ΙΔ΄ Λόγος «Περί φιλοπτωχίας», PG 35, 857-859
- [9] Εφραίμ ο Σύρος, Λόγος εις τον προφήτην Ιωνάν, και περί μετανοίας των Νινευιτών, Οσίου Εφραίμ του Σύρου, Έργα, τομ. Ζ΄, 1998, Το Περιβόλη της Παναγίας, Θεσσαλονίκη, σελ 302
- [10] Καλογήρου Ιωάννη, Ο Μέγας Βασίλειος υπόδειγμα Χριστιανού κοινωνικού εργάτου, Βασιλείας, εόρτιος τόμος επί τη συμπληρώσει 1600 ετών από τον Θάνατο του Μ. Βασιλείου, Θεσσαλονίκη : 1979 σελ.39-41
- [11] Φλορόφσκυ Γεωργίου, Οι Ανατολικοί Πατέρες του τετάρτου αιώνα, Πουρναράς, Θεσσαλονίκη , 2006 σελ. 107
- [12] Μεγάλος Βασίλειος, Επιστολή 223, Προς Ευστάθιον τον Σεβαστηνόν, PG 32, 824B.
- [13] Δημητρίου Ι. Κωνσταντέλου, *Βυζαντινή Φιλανθρωπία και Κοινωνική Πρόνοια*, Φως, Κοινωνική Προσπάθεια Αθήναι, 1990, σελ.111
- [14] Demetrios Constantelos, *Byzantine Philanthropy and Social Welfare*, Rutgers university press, New Jersey,1968, σελ.93-94
- [15] *ibid*, σελ.94-96
- [16] Γρηγορίου Νύσσης, *Επιτάφιος λόγος εις τον αδελφόν τον .Μ. Βασίλειον*, PG46, 808A
- [17] Ερμείας Σωζομενός, ο Σαλαμίνιος, *Εκκλησιαστική Ιστορία* 6,34 PG 67,1397A
- [18] Γρηγορίου Θεολόγου, *Επιτάφιος λόγος εις τον Μ. Βασίλειο*,PG 36, 580A
- [19] Αλέξανδρου Α. Μαρσέλου, *Ο Πανεπιστημίων Μέγας Βασίλειος Ως Ιατρός*, Βασιλείας, εόρτιος τόμος επί τη συμπληρώσει 1600 ετών από τον Θάνατο του Μ. Βασιλείου, Θεσσαλονίκη, 1979.
- [20] Γρηγορίου Θεολόγου, Λόγοι 43,63, PG 36, 577C
- [21] Γρηγόριος Νύσσης, Λόγος κατηχητικός ο Μέγας, PG45, 48AB
- [22] Ιωάννου Χρυσσοστόμου, *Ομιλία* 45, *Εις τας Πράξεις των Αποστόλων* PG 60, 319
- [23] Ιωάννου Κουρεμπελέ, *Δωσ΄ μου λόγο, Λόγε, Μελέτες λόγω Θεολογίας*, Θεσσαλονίκη: Κυριακίδης 2013, σελ.76-77.
- [24] Δίπτυχα της Εκκλησίας είναι το ημερολόγιο της ορθόδοξης Εκκλησίας, όπου μνημονεύονται όλες οι ορθόδοξες Εκκλησίες και το έργο τους.
- [25] Λαυρεντίου Δελλασούδα, *Εκκλησία και κοινωνική ένταξη ατόμων με ειδικές ανάγκες*, Αθήνα: Αυτοέκδοση, 1997, σελ. 43.
- [26] Λαυρεντίου Δελλασούδα, *Φιλανθρωπική και πνευματική διακονία της Εκκλησίας και κοινωνική ένταξη Ατόμων με Ειδικές Ανάγκες*, Αθήνα: Αυτοέκδοση, 2005, σελ. 87-166.